

العدول في المفردة القرآنية وأثره في تأويل السياق القرآني

- مقارنة تداولية -

الدكتور: المغيلي خدير

أستاذ محاضر

بجامعة أحمد دراية أدرار

الملخص:

ظاهرة العدول من القضايا اللغوية التي أثارت انتباه علماء العربية قديماً وحديثاً فبعضهم جعلها في البلاغة ، وبعضهم جعلها في التركيب ووظائفه النحوية، وبعضهم ألزمها كلمة الخطاب ليكشف عن أسبابها ودواعيها انطلاقاً من مقصديته ومدى تأثيره، ولكن العدول في المفردة القرآنية هو ما لفت انتباهنا وشد عقولنا إلى البحث في خفاياه ، ناظرين إناه كاشفينا عن نضوخته عبر مسالك تداولية معاصرة تمنح الخطاب القرآني أحقية سبقه وتميزه في إضفاء طابع التداولية على مفرداته ، فتداخل في ذلك الكشف اللغوي العلمي البعد الأسلوبي والتداولي رغم ما يميزهما على مستوى التنظير اللساني.

الملخص بالانجليزية:

in biting their making her in the eloquence, and in biting their making her in the grammatical assembly and his positions, and in biting their obligated her word of the speech to reasons and her discover about her inviter departure from intentionality and his extensions of impact, and the deviating hit in single Quranic he what our attention wrap up and tightening of brains our to the searching in secrets his, observers go away from him uncovering our about he blowup across circulating paths the contemporary Quranic speech grants precedence preceded him and his distinctiveness in marking projection circulating on single his, so overlap at that the detection the linguistic.

المقال:

إن الناظر في معاني الآيات القرآنية يحتاج إلى معرفة لسانية تمكنه من الوقوف على حركة المفردة القرآنية وتداولها في السياقات القرآنية، حين تزاحم الكلمة أخواتها من الكلمات المنتمية إلى حقلها المعجمي، فتحل مكانها وتسد مسدها تنكيتاً أو ترادفاً بما يرجح مجيئها على سواها من المفردات الأخرى، ويعرف هذا الحلول والتموضع في الدراسات الأسلوبية المعاصرة بالعدول ويعني الاختيار الذي يؤول " إلى مبدأ واحد: مبدأ التحقق في الخطاب على أساس الاختلاف والتعارض مع ما لم يتحقق"¹، ولعل الغرض من هذا العدول في الخطاب القرآني هو محاججة المتلقي بما أورده القرآن الكريم قصد إقناعه والتأثير في نفسيته وإعمال فكره بالتدبر في آياته .

والعدول في اللغة من "عَدَلَ عن الشيء يَعِدُّ عَدْلًا وَعُدُولًا حاد وعن الطريق جار وَعَدَلَ إليه عُدُولًا رجع وما له مَعْدِلٌ ولا مَعْدُولٌ أي مَصْرُفٌ وَعَدَلَ الطريقُ مال... والعَدْلُ أن تَعْدِلَ الشيءَ عن وجهه تقول عَدَلْتُ فلاناً عن طريقه وَعَدَلْتُ الدَابَّةَ إلى موضع كذا فإذا أراد الأَعْوَجُجَ نفسه قيل هو يَنْعِدِلُ أي يَعْوَجُجُ وَانْعَدَلَ عنه وَعَادَلَ اعْوَجَّ قال ذو الرُّمَّةِ وإني لأُنْحِي الطَّرْفَ من نَحْوِ غَيْرِهَا حَيَاءً ولو طَاوَعْتُهُ لم يُعَادِلْ"²، فهو في اللغة بمعنى الميل والانحراف والحياد عن الشيء لغيره.

والمتمأمل في التراث اللساني العربي يجد اختلافا في استعمال مصطلح العدول عند علماء العربية ، فقد تناولوه بأسماء كثيرة منها: العدول والانزياح والانحراف والخرق والخروج عن سنن اللغة والمجاز والالتفات. فكشفوا عبرها عن إشارات جليبة إلى مفهومه . فعند بعضهم خروج عن المعهود مثل ابن جني مؤيدا الأصمعي في ذلك فيقول: " أنك في المبالغة لا بد أن تترك موضعا إلى موضع إما لفظا إلى لفظ وإما جنسا إلى جنس فاللفظ كقولك : عُراض فهذا قد تركت فيه لفظ عريض . فعُراض إذا أبلغ من عريض... قال الأصمعي : الشيء إذا فاق في جنسه قيل له : خارجي . وتفسير هذا ما نحن بسبيله وذلك أنه لما خرج عن معهود حاله أُخرج أيضا عن معهود لفظه . ولذلك أيضا إذا أُريد بالفعل المبالغة في معناه أُخرج عن معتاد حاله من التصرف فمنعه"³ ، فكلام ابن جني يظهر معنى العدول في المفردات حين استعمال المتكلم المبالغة في كلامه، فيعدل بها عن لفظ إلى لفظ آخر يحقق به مراده من الخطاب، ليترك اللفظ بذلك موضعه للفظ آخر يحقق مقصدية المتكلم من الخطاب، كلفظ عراض في مقابلته للفظ عريض . وهو العدول الذي عُرف عند الأصمعي كذلك بالخروج عن المعهود والمألوف من الكلام. " وقد أجمع علماء العربية قديماً على أن أسلوب القرآن العظيم خارج عن المألوف من كلام البشر، وهذا يبين تنبه العرب إلى هذه الظاهرة الأسلوبية بمفهوم مغاير، إذ أجازوا للشاعر مالم يجيزوه للناثر من عدول عن أصل اللغة، وظهر أكثر وضوحاً في العصر الإسلامي لوقوعه في لغة القرآن الكريم"⁴، وقد سُبكت له الأقلام وكتبت حوله مقالات كثيرة تناولته بمسميات عديدة اجتمعت كلها على أنه كلام متفرد بأسلوبه.

ولذلك أورده بعضهم بمعنى الخروج عن العادة التي ألفتها ألسنة العرب في سننها وخطاباتها قبل مجيء الإسلام، ليُطل علينا القرآن الكريم بما يخالفها بغية المحاججة والتحدي والأعجاز والإقناع، ومن هؤلاء الرماني الذي يقول واصفاً ذلك: "إن العادة كانت جارية بضروب من الكلام معروفة منها: الشعر، ومنها السجع، ومنها الخطب، ومنها الرسائل، ومنها المنثور الذي يدور بين الناس في الحديث، فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة، لها منزلة في الحسن تفوق به كل طريقة"⁵ ، فواضح من كلام الرماني أن الاختلاف بين القرآن وكلام العرب لم يكن في المفردات ولا في الحروف وإنما كان في

طريقة نظمه لهاته الكلمات والحروف التي تراها تتساقق في التعبير القرآني تساوقاً عدل به القرآن عن أي كلام أراد مفارعتة، فمفرداته يتهدى بعضها إلى بعض في نسج بليغ يكشف عن روعة أسلوبيته وعظيم شأنه.

ولم يكن عبد القاهر الجرجاني أقل شأنًا من أقرانه فتحدث عن العدول في المفردات حديثًا تتراح له عقول المتدبرين ونفوس الحائرين ممن قصرت عقولهم في إدراك تداولية مفرداته وإعجازية نظمه، فيقول في ذلك: " وهل تشك إذا فكرت في قوله تعالى: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَفْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)⁶، فتجلى لك منها الإعجاز، وبهرك الذي ترى وتسمع... إن شككت، فتأمل: هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت، لأدّت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية؟ قل ابلي، واعتبرها وحدها من غير أن تنتظر إلى ما قبلها وما بعدها، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها.⁷، فاختيار ابلي والعدول عن غيرها من الألفاظ التي ترادفها ترادفا جزئيا في المعنى كسرط و شرب ...أنما راجع إلى موضعها في الآية حيث تألفت واتسقت مع الألفاظ الأخرى التي جاورتها في السياق القرآني صوتاً ودلالة.

وانطلاقاً مما قاله الجرجاني "فإنه يمكن الاعتماد على تداخل البعدين الأسلوبى والتداولي، في مقارنة المفردة القرآنية حاجبياً. ويمكن أن نضرب على ذلك مثلاً:

- قوله تعالى: (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ)⁸.

حيث نلاحظ أن موقع مفردة 'بنانه' يشذ عما جاورها من الفواصل، حيث تنتهي بالميم المتبوعة بالهاء: القيامة، اللوامة، عظامه.....أمامه...هذا الاستعمال يحدث في القول ضرباً من التبئير focalisation ويلفت النظر إليه، بحيث تسعى الأذهان إلى محاولة تأويله وتعليل خروجه عن مجازة سياق نظم الفواصل المجاورة له.⁹

فنظرة إلى التداولية المعاصرة واهتمامها بالخطاب يكشف دقة القرآن في التعبير عن كل مبادئها بل سبقه لكثير مما جاءت به، مما يجعلها خاضعة له تحقيقاً ودراسة، كونه خطاباً إلهياً تعدت لغته حدود البشر في الفعل الكلامي من حيث إنجازها المتصل بقيمة الخطاب وعداً ووعيداً وتوكيداً وغيرها من وجوه الإنجاز التداولي ومن حيث تأثيره بالقول تصريحاً وإضماراً، ومن خلال فعل القول نفسه، عند إنتاج التركيب صوتاً أو علامة لسانية تتمظهر في وحدات مفرداتية قرآنية تلائم السياق¹⁰.

ولعل الواقف على تداولية مفردات القرآن الكريم في استعمالها ضمن نطاق التواصل اللغوي للخطاب القرآني، يدرك أنها علامات تعانق أذهان المتخاطبين أو المؤولين للخطاب وتأسير عقولهم ونفوسهم قبل أن تكون رموزاً تحمل دلالات، وهي علاقة تداولية بامتياز نمت في حضانة كتاب الهي إلى أن كشفت عن وجودها التداولية المعاصرة، التي حاولت جاهدة في بداية ظهورها وعبر الدلائلية اللسانية أن تبحث عن الصلة القائمة بين العلامات ومستعملها¹¹ كمفردات خطابية يفاضل المتكلم بينها تبعاً لمقصدية خطابه وإنجازها لفعل الكلام.

ومن هنا فإن إدخال مفهوم القصدية في فهم العدول الحاصل في المفردات القرآنية مبدأ تداولي يظهر لنا السر الدفين وراء توظيفها واستعمالها كفعل كلامي منجز، ويبرز للمتلقي قوة المحاجة في اختيار المفردة القرآنية دون غيرها من

المفردات التي لا تقل شأنًا عنها ولا يبنو جرسها عن جرس أخواتها، لتحصل المفاضلة ويحدث العدول تبعًا لقصدية المُخاطِبِ.

وقد تجلت مقولة القصدية عند أهل التداول " بالخصوص، في الربط بين التراكيب اللغوية ومراعاة غرض المتكلم والمقصد العام من الخطاب، في إطار مفاهيمي مستوف للأبعاد التداولية للظاهرة اللغوية...ومن ثم فالفعل الكلامي يراد به الإنجاز الذي يؤديه المتكلم بمجرد تلفظه بملفوظات معينة...ولذلك يصح أن تعد تلك المعاني والمقاصد التواصلية أفعالًا كلامية...باعتبار أننا لا ننظر إليها على أنها مجرد دلالات ومضامين لغوية وإنما هي فوق ذلك إنجازات وأغراض تواصلية ترمي إلى صناعة أفعال ومواقف اجتماعية...¹² ، وهنا نتساءل ما الفعل أو الموقف الاجتماعي الذي صنعه استعمال لفظة بنانه دون غيرها في الآية السابقة؟

فهذا التدبر يجعلنا نستشعر من السؤال أهمية التأويل من جهة وخطورته من جهة ثانية، ذلك أنه يتوجب علينا إعطاء تأويل يتلائم ومعنى المفردة داخل السياق، دون أن يفصلها عن بعدها الحجاجي ومقصدها الذي وضعت من أجله، فلا يتم تأويل السياق إلا بالنظر إلى أسباب العدول في المفردة القرآنية مقترنا في الآن ذاته بأسباب النزول في الآية القرآنية كلها، لنرجح تأويلًا لرجاحته، أو نرد آخر لبدايته أو فساده. وفي ذلك تدبر يوصل المؤول إلى التفسير الصحيح.

فقد فسر المفسرون القدامى كالسيوطي مثلًا لفظ البنان في قوله تعالى: (عَلَىٰ أَنْ تُسَوِّيَ بَنَانَهُ) بقوله: " وهو الأصابع أي نعيد عظامها كما كانت مع صغرها فكيف بالكبيرة"¹³، وتأويله هذا لسياق الآية الكريمة يختلف عن التأويل المعاصر الذي أخذ بعدا علميا أشار إلى موقف اجتماعي يختبئ في ثنايا السياق القرآني وتعبير عنه مفردة البنان بمركزيتها الدلالية ومحوريتها في التعبير القرآني.

فذهب بعض المهتمين بالتفسير القرآني " الناظرين في الإعجاز العلمي في القرآن إلى أن الآية تشير إلى معجزة البصمة التي لا تتكرر بين إنسان وآخر. فكيف يمكن استخلاص قول يتلائم مع معنى الآية ومعنى المفردة"¹⁴، في ظل وجود فرق غير شاسع بين التأويل القديم والتأويل المعاصر لمعنى الآية رغم إقرارنا بصحة الاثنين. واجتماعهما في الموقف الاجتماعي الذي أصبح يعيشه الإنسان في ظل انتشار الجريمة والاختلاس والسرقة والتزوير، فإذا كان السيوطي أشار إلى أن الأصابع يعاد بناءها رغم صغرها بقدرة القادر المقتدر فإن الجريمة كموقف اجتماعي إذا وقعت في عصرنا يعيد المحقق بناءها وحدثها وطريقة حصولها انطلاقًا من بصمات الأصابع ليكشف عن الفاعل الحقيقي بتوفيق من الله سبحانه وتعالى، وفي ذلك تحقيق للأمن والأمان في المجتمع وإرساء لقواعد الشريعة وقوانينها، ولولا الخالق سبحانه الذي أودع هذه المعجزة في كتابه وخلقها في الإنسان ما استطاع المحقق في الجرائم الوصول إلى ذلك ولربما كان الخطب أعظم بعدم وجودها وحشاه سبحانه أن يغفل عن حقيقة الإنسان وأسرار وجوده.

فبالنظر إلى المنطلق الذي كان وراء استعمال مفردة البنان والعدول عن مفردات أخرى يتبين لقارئ القرآن الكريم ذلك البعد التداولي بين صاحب الخطاب سبحانه وتعالى وبين المتلقي في بيان المقصدية وراء العدول المفرداتي مقصدية أرادها سبحانه لإقناع المخاطِبِ ومحااجته بمضمون كتابه ودعوته إلى تدبر معانيه وتجسيدها في واقعه، كمواقف اجتماعية تلقي

بظلالها على سلوكاته وتصرفاته وأفعاله. لتكون هذه المواقف أسمى معاني تداولية الخطاب القرآني التي أرادها صاحب الخطاب جل جلاله.

والذي يجب التركيز عليه في تداولية المفردة القرآنية والوقوف على محاوريتها في السياق القرآني ما يعرف في التداولية المعاصرة بالبويرة التي "تسند إلى المكون الحامل للمعلومة الأكثر أهمية أو الأكثر بروزاً في الجملة"¹⁵، فينظر لها من حيث وظيفتها في التركيب اللغوي، سواء تعلق البحث بطبيعة هاته الوظيفة، أو بمجالها. ومجال وظيفة البويرة في الآية القرآنية السابقة يحيلنا إلى التمييز فيه بين بويرة المكون وبويرة الجملة¹⁶، فالأولى دل عليها لفظ البنان باحتلاله موقعا في السياق لفت انتباه المتلقي لذلك الخطاب، أما الثانية فهي التي بنيت عليها معاني السياق كله وتساوقت عبر وظيفتها مفرداته وحروفه.

ومن هنا فإن العدول في البويرة يقوم أساساً على طبيعة الإسناد الذي جسده تعالق البويرتين في التركيب، "مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض، حتى يكون لوضع كلٍّ حيث وُضع، علةً تقتضي كونهً هناك، وحتى لو وُضع في مكان غيره لم يصلح."¹⁷، وهذا ما يجعل السبب وراء استعمال لفظ البنان في الآية السابقة يتجسد في قيمته الإخبارية وتميزها عن غيرها، ثم في إشارته العلمية الإعجازية التي برهنت على عدول الخطاب القرآني بهذا المؤشر البيولوجي في طرف الأصابع عن الخطاب العلمي الإنساني برمته. بفعله الكلامي الذي حمل سمة الإنجاز والتأثير .

فقد تداخل في هذا العدول القرآني فعل القول وفعل الإنجاز وفعل التأثير¹⁸، فالأول عبرت عنه ألفاظ الآية الكريمة وتراكيبها ومعانيها، ثم إيقاعها الذي أضفى على الخطاب موسيقى سحرية سحرت نفوس المتلقين له بصدق بيانها وثبوت حقيقتها، فمثلت الهاء في ألفاظ القيامة واللوامه وعظامه وبنانه إيقاعاً كان له فعل التأثير في إقناع المتلقي باختيار لفظه البنان دون غيرها وفعل الإنجاز الذي صرح به سبحانه في بداية الآية القرآنية الكريمة وهو التحدي والآخر الذي بقي مختبئاً بين ثنايا النص ينتظر أهل الرسوخ في العلم ليكشفوا عن أسرارها وهو الفعل الذي لا يتحقق إلا بوجود وحدث الفعل التأثيري.

ويعد هذا العدول المتكاً على فعل القول والإنجاز والتأثير من المفارقة اللغوية لدى بعض الباحثين والتي في نظرهم "تتجه إلى مخالفة ما يجري تأكيده لما تكون عليه الحال الحاضرة فعلاً"¹⁹؛ حيث يتجاوز المنطوق المفارقي معنى السياق المنتمي إليه ويمتد لمعاني أخرى تدل على تفرد، باعتباره فعلاً كلامياً غير مباشر يختلف في طبيعته عن الأفعال الكلامية المباشرة التي تبدو دلالتها ظاهرة للعيان متجلية للأفهام، وخير مثال على هذا الفعل الكلامي غير المباشر قوله تعالى: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يُعْقِلُونَ}²⁰، فلو نظرنا نظرة المتأمل في لفظة الدواب ووقفنا على سببي النزول في الآية والعدول في المفردة القرآنية لوجدنا تالفاً بين معانيها ومعاني المفردات الأخرى في السياق القرآني ذاته، فالآية نزلت في بني عبد الدار الذين جدوا في القتال مع المشركين يوم بدر وصموا آذانهم عن سماع الحق المبين²¹، فوصفهم سبحانه بلفظة الدواب، لتحقق هاته المفردة دقة في وصف عنادهم وإعراضهم الشديد. بل في "عدهم من البهائم ثم جعلهم شرها ؛ لإبطالهم ما ميزوا به وفضلوا لأجله ، وهو استعمال العقل فيما ينفعم من التفكير والاعتبار."²²، إن هذه العدول القرآني باستعمال مفردة الدواب دون مفردة الأنعام أو غيرها من الألفاظ الأخرى المرادفة لها في جزء من المعنى جعل " الدواب

علامة على المفارقة، بما تُنبئُ إليه في المخزون اللغوي لدى المخاطبين، من معاني البهيمية والتسخير، وحرمان التكريم... لأنها تشير إلى مدلولات خارج النص ذاته. وتتجلى بلاغة النص هنا في توظيف محمولها الدلالي، وفي جعلها تصنع تعارضاً بين حقيقة الحيوان وحقيقة الإنسان²³ يؤدي إلى مفارقة قرآنية تحتاج إلى حسن تأمل.

فهذا التعارض بين الحقيقتين شكل من مفردة الدواب بؤرة في سياقها تختلف بمفارقتها عن استعمال لفظة الأنعام في قوله تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}²⁴، فلفظة الأنعام هنا ارتبطت بما يدل على عدم استعمال العقل عند الكفار كما حصل مع لفظة الدواب، لكن الذي كان فارقاً بين البؤرتين هو اختلاف دواعي الكفر بين الصنفين ففي لفظة الدواب كان السياق القرآني في قوله تعالى: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ} يشير إلى إصرار على الكفر والجد في قتال المسلمين والإعراض عن الحق دون استحضار للعقل فوصفهم بأنهم قوم لا يعقلون تشبيهاً بالدواب التي لا تعقل، وأما في الأنعام فكان إصرارهم على الكفر وخروجهم على الطريق الصحيح غفلة من غفلات المعاندين، لأن الأنعام تقبل الرياضة والتأديب لما يُراد بها أن تسير إليه، والكافر تجده عاصياً غافلاً على الدوام لا يفقه قلبه ولا تفقه عينه ولا أنه ما يحدث له، وهذا ما جعله سبحانه يصفهم في الآية السابقة بقوله: {أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} أي: المنهمكون في غفلتهم²⁵ الذين لا يقبلون تأديباً ولا إرشاداً ولا نصوحاً .

من هنا يتبين لنا أثر العدول في تأويل آيات الخطاب القرآني، لما يحمله من مسببات تفتح النص على أفق تأملي يمنح العقل مع أدوات التفسير الأخرى مساحة للتدبر والتمعن في أسرار مفردات القرآن الكريم وتداوليتها ضمن الفضاء القرآني الرحب والإنساني، كمواقف اجتماعية ينتمي إليها الفرد انتماءً اجتماعياً ويجسدها مدلول القرآن عبر محورية مفرداته داخل السياق القرآني، ونمثل لذلك التجانس التداولي بين العدول في المفردة القرآنية والتأويل في الخطاب القرآني من خلال النماذج الآتية:

- **العدول في مفردتي أبد ودام: الأبدُ هو " الدهر والجمع آباد وأبود وفي حديث الحج قال سراقه بن مالك أرأيت مُثَعْتَنَا هذه ألعامنا أم للأبد ؟ فقال بل هي للأبد وفي رواية ألعامنا هذا أم لأبد ؟ فقال بل لأبد أبدي وفي أخرى بل لأبد الأبد أي هي لآخر الدهر وأبد أبدي كقولهم دهر دهير ولا أفعل ذلك أبد الأبيد وأبد الآباد وأبد الدهر وأبيد وأبعد الأبدية وأبد الأبدية ليس على النسب لأنه لو كان كذلك لكانوا خلقاء أن يقولوا الأبدية قال ابن سيده ولم نسمعه قال وعندني أنه جمع الأبد بالواو والنون على التشنيع والتعظيم كما قالوا أرضون وقولهم لا أفعله أبد الأبدية كما تقول دهرَ الداهرين وعوضَ العائضين وقالوا في المثل طال الأبعدُ على بُدٍ يضرب ذلك لكل ما قدّم والأبدُ: الدائم والتأبيد التخليد²⁶، وتتكرر في المعاجم العربية الإشارة إلى أن الأبد يرادف الدائم²⁷.**

وهنا لا بد أن نقف على جوهر العلاقة الدلالية التي تربطهما للوصول إلى مواطن التقارب والاختلاف بين اللفظين وأسباب العدول من خلال السياق القرآني، فالدائم "من دام يدومُ إذا طال زمانه ودام الشيءُ سكن وكل شيء سكنته فقد أدّمته وظلَّ دَوْمٌ وماء دَوْمٌ دائمٌ وصفوهما بالمصدر والدَّامُ البحر لدوام مائه وقد قيل أصله دَوْماء فأعلاله على هذا شاذ ودَامَ البحرُ يدومُ سكن²⁸، وإذا كان الدائم هو الذي طال زمانه، فإن الأبد هو استمرار الوجود في أزمنة مقدر غير متناهية

في المستقبل، وهو تلك المدة التي لا يمكن إدراك وقت انتهاءها بالتفكير والتأمل، كما يطلق على كل شيء لا نهاية له²⁹ ، وإذا قابلنا بين الآيات القرآنية يتضح مدلولهما ويثبت بالسياق ترادفهما وسبب عدولهما، قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} ³⁰ ويقول تعالى: { مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُمْ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} ³¹، ويقول تعالى: { قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نُدْخِلُهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} ³².

ففي سياق الآية الأولى جاء لفظ أبد مقروناً بالخلود ، ولما كان " حال كونهم { خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا } ، أكد الخلود بالتأبيد؛ لأنه قد يطلق على طول المكث³³، فالخلود هنا يترادف في بعض المعنى مع الدائم، لأن الخلود قد يدل على دوام المكث والبقاء³⁴ وطوله مع وجود تفاوت دلالي بينهما، لكن ما يبرزه سياق الآية في قوله تعالى: { خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا } باستعمال التأبيد مع الخلود، هو تأكيد على أن الخلود المقصود لا يزول، لأن الأبد في هذا السياق جاء ليبدل على زمن مقدر لا يزول ودوام مقدر لا ينتهي، والمعنى نفسه يتكرر في قوله تعالى: { قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نُدْخِلُهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا } ، فجاء باللفظين الأبد والدوام في سياق واحد ليؤكد الفرق بينهما؛ حيث الأبد دل على الدوام الذي لا ينتهي، والدوام في قوله ما داموا دوام ينتهي بخروجهم من القرية، وهذا ما يبينه تفسير ابن عادل قائلاً: " قوله : {لَن نُدْخِلُهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا} [ما] مصدريّة ظرفية و ' داموا ' صلّتها ، وهي ' دام ' الناقصة ، وخبرها الجار بعدها ، وهذا الظرف بدل من ' أبداً ' وهو بدل بعض من كل ؛ لأنّ الأبد يعمّ الزمن المستقبل كله ، ودوام [الجبارين] فيها بعضه. ³⁵، فالأبد في الآية زمن لا ينتهي لعمومه على المستقبل كله ، والدوام عكسه فهو بعض من الأبد الذي ينتهي بخروج الجبارين ودل على ذلك قول ابن عادل (ودوام الجبارين فيها بعضه)؛ أي بعض من هذا الأبد الذي هو الكل.

ومن الآيتين نخلص إلى أن الأبد يترادف مع الدوام في الدلالة على طول المدة وطول الزمان وطول الدهر، ويختلفان في كون الدائم منقطع بشيء يلزم قطعه والأبد مستمر بلا انتهاء ولا انقطاع، والواضح أن لفظ الأبد يتضمن في معناه معنى الدائم، فكل أبد دائم، وليس كل دائم أبد وهذا الأخير دل عليه اعتذار القوم لسيدنا موسى، "بأن في هذه البلدة -التي أمرتنا بدخولها وقتال أهلها- قوما جبارين، أي: ذوي خلق هائلة، وقوى شديدة، وإننا لا نقدر على مقاومتهم ولا مُصاولتهم، ولا يمكننا الدخول إليها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها دخلناها وإلا فلا طاقة لنا بهم. ³⁶، فقولهم أن يخرجوا منها فإننا داخلون تأكيد لعدم أبدية الدوام ، إضافة إلى أنه لم يرد في المعاجم العربية المشهورة ما يدل على أن الديمومة في الشيء تعني أبدية الشيء دون انتهاء.

أما في قوله تعالى: { مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُمْ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ }، في الآية حديث على لسان عيسى عليه السلام، يقول فيه: "ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن عبدوا الله (وحوذوه وأطيعوه ولا تشركوا به شيئاً) وكنتم عليهم شهيدياً ما دمت فيهم

(أقمت فيهم) فلما توفيتني (قبضتني إليك). ³⁷، فالنيسابوري في قوله هذا بين لنا أن الدوام في الآية لا يدل على الاستمرار في الزمن المستقبل دون انقطاع، بل ينتهي بانتهاء الفعل، وهذا جلي في الآية؛ حيث لما كان عيسى عليه السلام

مقيماً بينهم كان دوامه مستمر إلى حين انقطاع هذا الدوام بعد أن قبضه الله سبحانه وتعالى ورفعته إليه، فسياق الآية دل على الفرق الدلالي القائم بين الدائم و الأبد، وهو الفرق الذي يجعل السياق يفاضل بينهما مراعاة لتحقيق الدلالة المقصودة.

والمعنى نفسه يتكرر في قوله تعالى: { وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بدينارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ }³⁸، ويقدم ابن عادل تفسيراً دقيقاً لمعنى ما دمت يبين فيه دلالتها على الدوام المنقطع فيقول: "قوله : {إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا} (استثناء مفرغ من الظرف العام ؛ إذ التقدير : لا يؤده إليك في جميع المُدِّ والأزمنة إلا في مدة دوامك قائماً عليه ، متوكلاً به و ' دُمَّتْ ' هذه هي الناقصة ، ترفع وتنصب ، وشرط إعمالها أن يتقدمها ما الظرفية كهذه الآية إذ التقدير إلا مدة دوامك [ولا ينصرف ، فأما قولهم : ' يدوم ' فمضارع ' دام ' التامة بمعنى بقي ، ولكونها صلة ل ' ما ' الظرفية] لزم أن يكون بحاجة إلى كلام آخر ، ليعمل في الظرف نحو أصحابك ما دمت باكياً ولو قلت ما دام زيد قائماً من غير شيء لم يكن كلاماً . وجوز أبو البقاء في ' ما ' هذه أن تكون مصدرية فقط ، وذلك المصدر - المنسبك منها ومن دام - في محل نصب على الحال ، وهو استثناء مفرغ - أيضاً - من الأحوال المقدرّة العامة ، والتقدير : إلا في حال ملازمتك له ، وعلى هذا ، فيكون ' دَامَ ' هنا تامة ؛ لما تقدم من أن تقدم الظرفية شرط في إعمالها ، فإذا كانت تامة انتصب قائماً ' على الحال"³⁹، فبين أن ما في ارتباطها بلفظة دمت دلت على أن مدة الدوام لا تستمر في المستقبل كما في لفظ الأبد، وإنما استمرارها في سياق الآية مرهوناً بفعل القيام، حيث ينتهي بانتهائه، وقس في ذلك على كل سياق قرآني استعملت فيه لفظة دام، وقد كانت العرب تسمي المطر ديمّة لدوامه أياماً، وسمت الظل الدوم والدائم، وكانت تقول كذلك دومت الشمس في كبد السماء⁴⁰، فالمطر والظل والشمس في السياقات المذكورة ينقطع دوامها ولا يستمر لحصول ما يمنعه، فالظل مثلاً ينقطع بالفيء وهو رجوعه وزواله، ودوام الشمس في كبد السماء ينقطع بحلول وقت الزوال وما بعده، يقول الشاعر:

والشمس حَيْرَى لَهَا فِي الْجَوِّ تَدْوِيمٌ مُعْرُورِيًّا رَمَضَ الرُّضْرَاضَ بِرِكْضِهِ⁴¹

والمطر كذلك ينقطع دوامه بانقشاع الغيوم.

- **العدول في مفردتي أتى وجاء:** من الإتيان و " الإتيان المَجِيء أَتَيْتَهُ أُنْيًا وَأُنْيًا وَأُنْيًا وَأُنْيًا وَإِثْيَانًا وَإِثْيَانًا وَمَأْتَاةً جِئْتَهُ ... وَأَتَى إِلَيْهِ الشَّيْءَ سَاقَهُ وَالْأَتَى النُّهْرَ يَسُوقُهُ الرَّجُلُ إِلَى أَرْضِهِ وَقِيلَ هُوَ الْمَفْتَحُ وَكُلُّ مَسِيلٍ سَهَّلْتَهُ لِمَاءٍ أُنْيٍ وَهُوَ الْأُنْيُ حَكَاهُ سَبِيوِيهِ وَقِيلَ الْأُنْيُ جَمْعٌ وَأُنْيٌ لِأَرْضِهِ أُنْيًا سَاقَهُ ... وَفِي حَدِيثِ طَبَّيَّانٍ فِي صِفَةِ دِيَارِ ثُمُودٍ قَالَ وَأَتَوْا جَدَاوِلَهَا أَي سَهَّلُوا طُرُقَ الْمِيَاهِ إِلَيْهَا"⁴²، فإذا كان الإتيان هو المَجِيء فهذا يعني ترادفهما، مع وجود فرق بينهما نجده في السهولة التي تحملها مفردة الإتيان.

أما المَجِيء الذي تدل عليه لفظة جاء والذي يحمل في معناه مشقة وصعوبة، يقول فيه ابن منظور: " المَجِيء الإتيان جاء جَيْئًا وَمَجِيئًا وحكى سببويه عن بعض العرب هو يَجِيكُ بحذف الهمزة وجاءَ يَجِيءُ جَيْئَةً ... وجاءني فَجِئْتُهُ أَجِيئُهُ أَي غَالِبَنِي بِكَثْرَةِ الْمَجِيءِ فَعَلَبْتُهُ ... وَأَجَاءَهُ إِلَى الشَّيْءِ جَاءَ بِهِ وَأَلْجَأَهُ وَاضْطَرَّهُ إِلَيْهِ."⁴³، فالواضح من قول ابن منظور أنه جعل الإتيان مجيئاً والمَجِيء إتيان، لكنه أبان عن اختلاف دلالتها من خلال ما عرضه من سياقات كلامية، فتجده يقول مستعملاً لفظ السهولة في الإتيان ليدل على ذلك الفرق فيقول: (وكلُّ مَسِيلٍ سَهَّلْتَهُ لِمَاءٍ أُنْيٍ) ثم يقول (وَأَتَوْا جَدَاوِلَهَا أَي

سَهَّلُوا طُرُقَ الْمِيَاهِ إِلَيْهَا) ، ليؤكد هذا الفرق في لفظ المجيء حين يقول (وجاءني فَجِنُّهُ أَجِيئُهُ أَي غَالِبَنِي بِكَثْرَةِ الْمَجِيءِ فَعَلَبْتُهُ) فكثرة المجيء والمغالبة عليه فيها صعوبة ومشقة، ثم يؤكد هذا في قوله: (وَأَجَاءَهُ إِلَى الشَّيْءِ جَاءَ بِهِ وَالْجَاءُ وَاضْطَرَّه إِلَيْهِ)، وجلي أن إلقاء وإرغام واضطرار الشخص على المجيء فيه من الصعوبة والعناء ما يجعل المجيء في دلالاته يختلف عن الإتيان بالرغم من ترادفهما في جزءٍ من المعنى وهو القدم، فسواء قلت جاء فلان، أو أتى فلان فيعني ذلك أنه قَدِمَ، ويبقى الاختلاف في طبيعة القدم أكان سهلاً أم فيه عناء.

وتعالوا معنا نتدبر بعض السياقات القرآنية لنستشف ذلك الترادف الحاصل بين اللفظين، ونقف على أسباب العدول في المفردتين يقول الله تعالى: { قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ }⁴⁴، يقول الماوردي: " وقال ابن عباس : هو النمرود بن كنعان بن سنحاريب بن حام بن نوح بنى الصرح في قرية الرس من سواد الكوفة ، وجعل طوله خمسة آلاف ذراع ، وعرضه ثلاثة آلاف ذراع وخمسة وعشرين ذراعاً وصعد منه مع النسور ، فلما علم أنه لا سبيل إلى السماء اتخذها حصناً وجمع فيه أهله وولده ليتحصن فيه ، فأتى الله بنيانه من القواعد ، فتداعى الصرح عليهم ، فهلكوا جميعاً"⁴⁵ ويقول القرطبي في معنى الإتيان الوارد في الآية: " ومعنى {فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ} أي أتى أمره البنيان ، إما زلزلة أو ريحا فخريته."⁴⁶، فلما كان أمره سبحانه وتعالى حاصل بإرادته، أتى على هذا البنيان فهدمه رغم طوله ومثانة بناءه، كيف لا وهو القائل سبحانه "وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول كن فيكون"⁴⁷، فإذا كان أمره تعالى يتم بمجرد إشارته سبحانه، كان لزاماً في السياق القرآني أن يستعمل سبحانه جل وعلا ما يدل على تلك السهولة، فوظف لفظ أتى الذي هو مجيء بالأمر في قوله تعالى {فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ} ليدل به على المعنى المراد. ودل على هذا المجيء السهل بالأمر بلفظ أتى دلالة واضحة في قوله تعالى: {أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ }⁴⁸، فلو تأملنا لفظ أتى في هذا السياق لوجدناه مشتملاً على سهولة المجيء كغيره من الآيات القرآنية. أما في قوله تعالى: { فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ }، ففيه دلالة أخرى على عظمة القرآن في اختياره اللفظ المناسب للسياق المناسب دون مبالغة أو تفريط، ولا يمكن لعاقل أن يشك في ذلك. وتأمل معي هاته الآية لتلمح بدلالة العقل أن البناء في طبيعته أمر فيه من الإتيان والرص والإحكام ما يدل على صعوبة ذلك على غير العارفين به، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُورٌ }⁴⁹، تشبيه بالبناء الذي يُلزق بعضه إلى بعض حتى يصير ثابتاً⁵⁰، وأمام صعوبة بناء الصرح الذي أوجده النمرود وأتقنه، جاء القرآن بلفظ يُثَبِّت سهولة هدمه من لدن الله سبحانه وتعالى فقال: {فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ}، أي: جاء عليه بأمره لا بذاته، قال الشاعر:

متى يبلغُ البنيانُ يوماً تَمَامَهُ إذا كنتَ تبنيه وغيرك يهدمُ⁵¹ .

فما الفائدة إذا كنت تتعب في البناء وتشفى بعناء وإتقان، ويسهلُ على غيرك هدم ما بنيت.

فلعل هذا الترجيح الدلالي الذي أخذنا به في استنباط معنى لفظ الإتيان من السياق القرآني مراعين في ذلك ما جاورها في السياق من ألفاظ، هو من الطرائق اللغوية التي تسنح لنا بالنظر إلى الدلالات اللفظية التي تشترك الألفاظ في بعضها وتفترق في البعض الآخر الذي يُلزم صاحب الخطاب بالمفاضلة بينها، فيختار منها ما يلائم السياق ويتوخى معاني النظم والتركيب.

وإذا جئنا لتطبيق ذلك على لفظ جاء مراعيًا دلالاته في السياق وترادفه مع الإتيان، للمسنا تقاطعاً بينهما في التعبير عن المعنى العام واختلافاً في التعبير عن المعنى الخاص الذي اقتضاه سياق كل منهما، قال تعالى: {فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّسِيًّا⁵² ، والمخاض الذي جاء مريم عليها السلام كما هو معروف ذلك الذي يصحبه وجعٌ وشدٌ لا يُطاق عند الولادة، وكان لشدة وقعه أن جعل مريم ابنة عمران تنمى الموت، وزاد ذلك انعدام الماء والكلء ووحشة في الصدر جسدت ألمها الشديد⁵³، قال تعالى على لسانها: يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّسِيًّا⁵⁴، فأمام شدة حالها وعظيم خطبها ومعاناتها ما كان لهذا السياق القرآني أن يدل على ذلك لو أنه اشتمل على لفظ الإتيان، فقال سبحانه مفاضلاً بينهما: "فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ"، ليعبر تعبيراً دقيقاً عن معنى المجيء الدال على الإتيان بشكل عام وعن المجيء الصعب والشاق الغالب على سياق الآية بشكل خاص، "لكن المجيء أعم من الإتيان فهو يستعمل في الأعيان والمعاني، ولما يكون مجيئه بذاته وبأمره"⁵⁵.

فالذي يأتي في الأعيان كقوله تعالى: { وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ⁵⁶، وفي المعاني كقوله تعالى: { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا⁵⁷، والذي يأتي بالذات فكقوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ⁵⁸، وأما الذي يأتي بالأمر فمثل قوله تعالى: { فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ⁵⁹، وفي هاته الآية الأخيرة ما يطرح تساؤلاً على المتدبر لكتاب الله المتفحص لدلالة ألفاظه، كيف يستعمل الله تعالى جاء ويستعمل أتى بعدها في سياق واحد؟ والجواب أن لفظ جاء في الآية بقي دالاً على المجيء الصعب رغم ارتباطه بأمره تعالى ، فاستعمله سبحانه ليدل على صعوبة إقناع سيدنا إبراهيم بعد جداله الطويل مع الرسل حول مصير قوم لوط، وهذا أولاً عليه أبن عجيبة قائلاً: "جعل { يُجَادِلُنَا } أي : يخاصم رسلنا { في } شأن { قوم لوط }، ويدفع عنهم ، قال: { إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا⁶⁰، { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ }، غير عجول من الانتقام إلى من أساء إليه. { أَوَّاهٌ }؛ كثير التأوه والتأسف على الناس، { منيب }، راجع إلى الله .والمقصود من ذلك : بيان الحامل له على المجادلة ، وهي : رقة قلبه وفرط ترجمه . قال تعالى على لسان الملائكة: يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا { ، الجدل؛ { إنه قد جاء أمر ربك } بهلاكهم ، ونفذ قضاؤه الأزلي فيهم ، ولا مرد لما قضى ، { وإنهم آتيتهم عذاب غير مردود } ؛ غير مصروف بجدال ولا دعاء ، ولا غير ذلك. "⁶¹، فصعوبة إقناعه لرقه قلبه على أولئك القوم وإشفاقه عليهم، وما كان من جدال بينه وبين الرسل ودفاعه المستميت، لم يكن للتعبير عن ذلك سوى استعمال لفظ جاء، وما دل على تلك الصعوبة والشدة في المجيء ما ذكره بن عجيبة من كلمات تعبر عنها، تمثلت في (خصامه، جداله، تأوّه، تأسفه، رقة قلبه، فرط ترجمه)، ثم استعمل تعالى بعده لفظ أتى للدلالة على سهولة تنفيذ الأمر من الله سبحانه بإهلاكهم وتسليط العذاب عليهم.

و ننظر ترادفاً دلاليًا بين اللفظين في قوله تعالى: { إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ } و{أتى أمر الله}، فكلاهما دالٌّ على أن الأمر لم يحصل بعد، لكنه واقعٌ في علم الله ، ولا بد من تحققه ، فخطبهم قائلاً: لا تطلبوه قبل حينه وتستعجلوا حدوثه لأنه واقع لا محالة، وكلا الأمرين في الآيتين قادمٌ وغير مصروف، إلا أن أحدهما بالمجيء والآخر بالإتيان، فاللفظان كما نلح في هذا التحليل يترادفان في بعض المعنى ويفترقان في الدلالة على سهولة الإتيان وصعوبة المجيء.

ودلالة المجيء على الصعب والشاق والشديد تتكرر في قوله تعالى " وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى " ، ومعنى قوله: " من أقصا المدينة يسعى (قال الكلبي : يسرع في مشيه لينذره، مقاتل : يمشي على رجليه ،)"⁶²، وفي قول الكلبي ومقاتل دليل على التعب والإرهاق الذي صاحب المسرع خاصة وأنه كان يحمل خبراً فيه وقع شديد على سامعه، حيث قال له: " يا موسى إنّ الملائمة يأترون بك ليقتلوك؛ أي يهيمون بقتلك ويتشاورون فيك ، وقيل : يأمر بعضهم بعضاً ."⁶³، فضراوة الحدث وشدة وقع الخبر على موسى عليه السلام، وإسراع المنذر بالمشي في إيصال الخبر له، ما كان للفعل أتى أن يجسدها في الآية السابقة.

فتمام المعنى باختيار اللفظ المحقق للدلالة، ذلك الذي استقرأنه في استعمال جاء كما بينا في هذا التحليل الدلالي الذي يبين لمتدبر القرآن أن العدول عن لفظة إلى أخرى تحيط به مقاصد قرآنية وأسرار ربانية جليلة منحتة حضوراً إعجازيا في بيان قيمة المفردة الدلالية داخل السياق وأهميتها الاجتماعية خارجه، لذلك تعددت أنماطه في المفردات القرآنية.

وإذا التفتنا إلى بعض هذه الأنماط نجد أن هناك عدول عن صيغة المفعول إلى الفاعل في المفردة القرآنية كما في قوله تعالى: { فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ }⁶⁴ أي: مدفوق، وعدول عن الأفراد إلى ما حقه أن يجمع كما في قوله تعالى: { سُبُّهُمْ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبْرَ }⁶⁵ والمقصود بالدبر؛ "أي الأدبار بدليل قوله تعالى : { فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ }"⁶⁶ وقوله تعالى : { أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوَاتِرِ النِّسَاءِ }⁶⁷: أي الأطفال... ونحو هذا كثير في القرآن ، وفي كلام العرب"⁶⁸.

وما قدمناه هو غيض من فيض يحتاج إلى مزيد من البحث والدراسة للكشف عن مكوناته ذلك أن قضية العدول في المفردة القرآنية سر من أسرار الإعجاز القرآني الذي أخذ بعداً تداولياً في الخطاب القرآني لا يدرك إلا بالتدبر الرصين القائم على معرفة فصاحة الكلمات القرآنية وبلاغة خطابها الرباني والذي يفضي إلى إثبات شرعية حضور المفردة القرآنية كبؤرة لفهم السياق في التفسير القرآني .

قائمة المصادر والمراجع:

*القرآن الكريم برواية حفص

- 1- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي، تح : مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر للطباعة والنشر – بيروت، 1995م
- 2- البحر المديد، ابن عجيبة، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 2002م.
- 3- التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، مسعود صحراوي، دار الطليعة ، بيروت- لبنان، 1، 2005م.
- 4- التداولية، فرناند هارين، ترجمة: زياد عز الدين العوف، الآداب العالمية، الموقع: www.reefnet.gov.sy

- 5- التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، 2007م.
- 6- تداولية النص الشعري، جمهرة أشعار العرب أنموذجاً، شيتير رحيمة، إشراف: عبد القادر داخمي، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج الأخضر باتنة، 2008/2009م.
- 7- تفسير الجلالين، جلال الدين السيوطي وجمال الدين المحلي، مكتبة الصفا، القاهرة، ط1، 2002م.
- 8- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت671 هـ) تح: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2003 م.
- 9- الخصائص، أبي الفتح عثمان بن جني، تحق: محمد علي النجار، عالم الكتب - بيروت
- 10- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحق، أبو فهر ومحمود محمد شاكر، شركة القدس للنشر والتوزيع، ط3، 1992م.
- 11- العدول الصرفي في القرآن الكريم، ماجدة صلاح حسن، المجلة الجامعة، مركز البحوث والدراسات العليا بجامعة الزاوية، ليبيا، العدد 11، 2009م
- 12- الكشف والبيان، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان ، ط1، 2002 م.
- 13- لسان العرب، ابن منظور ، دار صادر، بيروت، ط1، د.ت.
- 14- محاولات في تحليل الخطاب، صابر الحباشة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ط1، 2009م، ص.133
- 15- المفارقة القرآنية دراسة في بنية الدلالة، محمد العبد، مكتبة الآداب، القاهرة- مصر، ط2، 2002م.
- 16- النكت في إعجاز القرآن، الرماني، تحق: محمد خلف الله ومحمد زغلول، دار المعارف مصر، د.ت
- 17- النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، تح: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- 18- الوظائف التداولية في اللغة العربية، أحمد المتوكل، دار الثقافة، الدار البيضاء- المغرب، ط1، 1985م.

الهوامش:

- ¹ محاولات في تحليل الخطاب، صابر الحباشة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ط1، 2009م، ص133.
- ² لسان العرب، ابن منظور، مادة عدل، دار صادر، بيروت، ط1، د.ت، ج11، ص430.
- ³ الخصائص، أبي الفتح عثمان بن جني، تحق: محمد علي النجار، عالم الكتب - بيروت، ج3، ص46.
- ⁴ العدول الصرفي في القرآن الكريم، ماجدة صلاح حسن، المجلة الجامعة، مركز البحوث والدراسات العليا بجامعة الزاوية، ليبيا، العدد 11، 2009م، ص18.
- ⁵ النكت في إعجاز القرآن، الرماني، تحق: محمد خلف الله ومحمد زغلول، دار المعارف مصر، د.ت، ص102.
- ⁶ سورة هود، الآية: 44.
- ⁷ دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحق، أبو فهر ومحمود محمد شاكر، شركة القدس للنشر والتوزيع، ط3، 1992م، ص45.
- ⁸ سورة القيامة، الآية: 1-5.
- ⁹ محاولات في تحليل الخطاب، ص134، 136.
- ¹⁰ ينظر: التداولية، فرناند هارين، ترجمة: زياد عز الدين العوف، الآداب العالمية، الموقع: www.reefnet.gov.sy ، ص27
- ¹¹ ينظر: التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، 2007م، ص45.
- ¹² التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، مسعود صحراوي، دار الطليعة ، بيروت- لبنان، ط1، 2005م، ص 10.
- ¹³ تفسير الجلالين، جلال الدين السيوطي وجمال الدين المحلي، مكتبة الصفا، القاهرة، ط1، 2002م، ص564.
- ¹⁴ محاولات في تحليل الخطاب، ص135
- ¹⁵ الوظائف التداولية في اللغة العربية، أحمد المتوكل، دار الثقافة، الدار البيضاء- المغرب، ط1، 1985م، ص28.
- ¹⁶ ينظر: المرجع نفسه، ص28.
- ¹⁷ دلائل الإعجاز، ص49
- ¹⁸ ينظر: تداولية النص الشعري، جمهرة أشعار العرب أنموذجاً، شيتير رحيمة، إشراف: عبد القادر داخمي، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج الأخضر باتنة، 2009/2008م، ص ' ز ' من مقدمة الكتاب.
- ¹⁹ المفارقة القرآنية دراسة في بنية الدلالة، محمد العبد، مكتبة الآداب، القاهرة- مصر، ط2، 2002م، ص19.
- ²⁰ سورة الأنفال، الآية: 22.

-
- ²¹ ينظر: البحر المديد، ابن عجيبة، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط2، 2002م، ج3، ص24.
- ²² البحر المديد، ج3، ص24.
- ²³ المفارقة القرآنية، ص113.
- ²⁴ سورة الأعراف، الآية: 179
- ²⁵ البحر المديد، ج2، ص577.
- ²⁶ لسان العرب، مادة أبد، ج3، ص 68.
- ²⁷ ينظر: مختار الصحاح، مادة أبد ، والمفردات مادة أبد، ص59، تح: داوودي، ص11.
- ²⁸ لسان العرب، مادة دوم، ج 12، ص 212.
- ²⁹ ينظر: التعريفات، مادة الأبد، ص63.
- ³⁰ سورة النساء، الآية: 57.
- ³¹ سورة المائدة، الآية: 117.
- ³² سورة المائدة، الآية: 24.
- ³³ البحر المديد، ج3، ص 85.
- ³⁴ مختار الصحاح، مادة خلد، ص 110.
- ³⁵ اللباب في علوم الكتاب، ج7، ص 274.
- ³⁶ تفسير ابن كثير، ج3، ص 75.
- ³⁷ الكشف والبيان، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان ، ط1، 2002، مج4، ص 129.
- ³⁸ سورة آل عمران، الآية: 75.
- ³⁹ اللباب في علوم الكتاب، ج5، ص333.
- ⁴⁰ ينظر: المفردات مادة دوم، ص322، 323، تح: داوودي.
- ⁴¹ ديوان ذي الرمة ، تح: مطيع بيلى، المكتب الإسلامي، بغداد، ص660.
- ⁴² لسان العرب ، مادة أتى، ج2، ص588.

⁴³ لسان العرب ، مادة جياً، ج1، ص51.

⁴⁴ سور النحل، الآية: 26.

⁴⁵ النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، تح: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج3، ص 142.

⁴⁶ الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت671 هـ)، تح: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2003 م، ج10، ص 97.

⁴⁷ سورة يس، الآية: 82.

⁴⁸ سورة النحل، الآية: 01.

⁴⁹ سورة الصف، الآية: 04.

⁵⁰ ينظر: تفسير الجلالين، ص 533.

⁵¹ معجم الاستشهادات، مادة البناء، ص101.

⁵² سورة مريم، الآية: 23.

⁵³ ينظر: تفسير الجلالين، ص290.

⁵⁴ سورة مريم، الآية: 23.

⁵⁵ المفردات، مادة جاء، ص212، تح: داوودي.

⁵⁶ سورة القصص، الآية: 20.

⁵⁷ سورة الفرقان، 04.

⁵⁸ سورة غافر، الآية: 34.

⁵⁹ سورة هود، الآيات: 74، 75، 76.

⁶⁰ سورة العنكبوت، الآية: 32.

⁶¹ البحر المديد، ج3، ص312.

⁶² الكشف والبيان، ج7، ص242.

⁶³ المصدر نفسه، ج7، ص242.

⁶⁴ سورة الطارق، الآيتين: 5، 6.

⁶⁵ سورة القمر، الآية: 45

⁶⁶ سورة الأنفال، الآية: 15

⁶⁷ سورة النور، الآية: 31

⁶⁸ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي، تح: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر للطباعة والنشر – بيروت، 1995م، ج4، ص274.